

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلف لنا التعرف الى بعض المؤرخين المسلمين الذين عاصروا وصول الفزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبار الصراع مع هؤلاء الفزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صاحب الزيل على تاريخه ، وكان العماد الاصفهاني - وفيما بعد ابن شداد - قد شارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فائق الأهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الأهمية بددتها صنعة الكلام التي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني ، ولد في اصفهان سنة ٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م ، وهو بعمره المديد كان شاهد القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد .

انحدر العماد من أسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منها بالإدارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العماد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الأولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الإدارية ، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفاجئة آنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعده شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيا له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بامد وجيز استخدمه صلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشارات مفصلة للعماد وللادوار التي تولاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العماد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم - بحكم كونه اتقن نظم الشعر - بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وذيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ - كتاب « نصره الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسلطين السلاجقة ووزرائهم وأعيان دولهم ورجالاتهم ، وبنى أصل هذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بن خالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » ، ونظرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قام الفتح البنداري في العصر الايوبي بتهنيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبوع في ايدي الناس ، هذب البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ - كتاب « الفتح القسي في الفتح القدي » ويقال « الفيح القسي » وهي التي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العماد استهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة أرخ به العماد للفترة الممتدة من سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ - « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعل هذا الكتاب في سبعة اجزاء ، أرخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٦٢ هـ ، ١١٦٧ حتى وفاة صلاح الدين ، اي أرخ فيه للدولتين الذورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابو شامة في كتابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بأكمله ، بل وصل إلينا من أجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جل المتبقي من الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسها والمكان نفسه ، وذلك اعتمادا على المخطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في اكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العامة بالرباط ، وهي مصورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السوسي ، ولانعرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغته ، فقد تغيرت المعاني وتبدت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقة جدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصفحات : ١٧٠ - ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمان فوجدت فيها ١١٥ / كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابن واصل هذه المصاعب فاقترضوا بالذقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجديد المهذب « سنا البرق الشامي » وساف الباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة من هذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبل فتحية نبرايوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فرائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتدائه بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء - ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها وادعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ما كتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نلقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقاريء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ - ذي القعدة - ١٤١٥ هـ

١٥ نيسان - ١٩٩٥ .